أدب.. نقد.. ترجمة

محور العدد: السيرة والأدب

★ فن السيرة

★ النماذج التراثية في سيرة فدوى طوقان

★ عمالقة في حياة.. محمد عبدالحليم عبدالله

★ د. صلاح فضل ومناهج النقد الأدبي المعاصر

★ رواية المقامة الرملية لهاشم غرايبة «التجديد والتشظي»

★ الرعب من الآلة

★ اللسانية وأغراضها

★ غواص (3)

★ رواية الحوّات والقصر (مراجعة)

★ كتاب السياب النثري (مراجعة)

★ آيريس ميردك (ترجمة)

★ شكسبير.. اختراع الانسان (ترجمة)

★ التقارير: كتابتها ومراجعتها (ترجمة)

★ التذكير والتأنيث في الترجمة

فن السيرة

د. محمد عبيدالله
كلية الآداب ـ جامعة فيلادلفيا

يعدّ فن السيرة الذاتية واحدا من الفنون التي يقبل عليها الناس قراءة وكتابة، لأنّه يتّصل بكشف غوامض الروح وفضائح الذات، أي يختص بجوهر الإنسان في تقلبات حياته وانعطافاتها، وقد ابتدأ هذا الفن منذ بدأ الإنسان يتأمّل الأحداث التي تمرّ به، وتؤثر فيه، فأخذ يسجّلها ويجرؤ أحيانا على كشفها للآخرين ..... وقد ازدهر وتطوّر في العصر الحديث، واكتسب ملامح ومعالم تميّزه عن سواه من الفنون الأخرى، فأحداث حياة الإنسان تدخل في سائر فنون القول، من شعر ونثر، ولكن فن السيرة الذاتية اكتسب ملامح تميّزه، وتجعله فنا مختلفا ومستقلاً عن سواه.

وفي هذه الدراسة أحاول ضبط هذه المفاهيم والملامح المتعلّقة بفن السيرة الذاتية، كما أحاول أن أميّزه عن فنون الأدب الشخصي تلك التي تقترب من هذا الفن وتكاد تختلط به كاليوميات والمذكرات وغيرها.

1. مفهوم السيرة

1. أ. السيرة لغة:

جاء في معجم (لسان العرب) معنى سيرة[1]: الطريقة.. والسنة... والهيئة، وفي التنزيل العزيز سنعيدها سيرتها الأولى - طه (21)، وسيّر سيرة: حدث أحاديث الأوائل. وسار الكلام والمثل في الناس: شاع. وسار الوالي في الرعية سيرة حسنة. وهذا في سير الأولين، وقال خالد بن زهير:

فلا تغضبن من سنّة أنت سرتها
فأوّل راضي سنّة من يسيرها

ومن هذه المعاني اللغوية يمكن أن نستنتج أن السيرة في أحد معانيها أحداث حدثت في الماضي ويعاد سردها لتكون عبرا وعظة للأجيال المتعاقبة[2].

1. ب. السيرة اصطلاحا:

جاء في الموسوعة الأمريكية: إن السيرة حياة إنسان، وهو التعريف الموجز الذي وضعه (كارلايل)[3]. وقد تعددت التعريفات التي وضعها الباحثون ولكنها تدور في مجملها على مفهوم أو مدلول واحد. فالدكتور إحسان عباس يقول إن السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها والسيرة في هذا الوضع تحقيق غاية تاريخية، وكلما كانت السيرة تجتزىء بالفرد وتفصله عن مجتمعه وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة[4].

أما الدكتور عبد الكريم الأشتر فيقول: إنها ما يترجم الأدباء لحياتهم وحياة أعلامهم من رجال الأدب والفكر والسياسة، إذ يجمعون الوثائق التي تتصل بها، فيصوغونها ويرصدون نموها ومراحل تطورها ثم يكتبون قصتها من جديد[5].

ويعرفها آخرون أنها: فن أدبي مادته الأحداث والمشاهير التي مر بها إنسان ما[6]. كما أن السيرة: إعادة حياة وأنها عملية تركيبية، وتظهر براعة كاتب السيرة في التركيب من بقايا نخرة، لينفخ في تلك العظام النخرة الحياة لتعود من جديد تتنفس وتجري فيها الدماء[7].

1. ج. سيرة أم ترجمة:

يستخدم الكتاب والباحثون مصطلحا آخر غير (السيرة) للدلالة على هذا الضرب من الكتابة الذي نحاول تحديده وفهم مدلوله في هذا

السياق، والمصطلح هو ترجمة فقد استخدمه الدكتور شوقي ضيف حين أسمى كتابه (الترجمة الشخصية) كما استخدمه الدكتور يحيى عبد الدايم حين أطلق على بحثه (الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث). كما أنه ورد عند سائر الباحثين الذين عرضوا لهذا الفن، ومن خلال تتبع سياق استخدام هذا المصطلح نلاحظ أنه يستعمل مرادفا لمصطلح السيرة، دون أن يكون هناك كبير اختلاف بينهما في الدلالة الحديثة.

ويذهب الدكتور يحيى عبد الدايم إلى أن الترجمة كلمة دخلت إلى العربية عن اللغة الآرامية، ولم يكن الاصطلاح قد جرى على استعمالها فيما يبدو إلا في أوائل القرن السابع الهجري حين استخدمها ياقوت في معجمه بمعنى حياة الشخص ويرجّح هذا الظن أن أبا الفرج في كتاب الأغاني لم يستعمل لفظة (ترجمة) عند كلامه على حيوات الشعراء وغيرهم، وكان يسبق كلامه بمثل قوله: خبر أبي قطيفة، ونسبه، أو أخبار بشار بن برد ونسبه[8].

ويخالف ما ذهب إليه الدكتور عبد الدايم أننا نجد ابن المعتز المتوفى سنة (296هـ) يذكر كلمة ترجمة بمعناها الاصطلاحي المعروف في مقدمة كتابه طبقات الشعراء إذ قال

فكان أول ترجمة ابن النجم بشار بن برد وما له من الأشعار والآثار.[9]

ولسنا في سياق البحث عن تطور هاتين الكلمتين ومتى ابتدىء استخدامهما، إذ أننا سنصرف الحديث إلى تأمل ملامح هذا الفن وشروطه، أكثر من التوقف عند الامتداد التاريخي لما يتصل به من مصطلحات.

وبوجه عام لا نجد اختلافا بين استخدام لفظة السيرة أو الترجمة بصرف النظر عن تاريخ كل منهما.

1. د. السيرة الغيريّة:

جاء مصطلح السيرة الغيريّة، من *Biography* وهو مشتق من كلمتين يونانيتين تعنيان: وصف حياة، فـ *Bois*: حياة، و *Graphein*: يصف. ويمكن أن تعرف السيرة الغيرية بأنها بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلّفه في جيله. فهي سيرة لا يكتبها بطلها بل تكتب من قبل الآخرين، أو شخص آخر يتتبع حياة بطل السيرة ويلاحق تفاصيلها.

1. هـ. السيرية الذاتية:

السيرة الذاتية هي المصطلح المقابل لـ (*Autobigroabhy*) وهي تاريخ حياة إنسان ما كتبها بنفسه، وتؤكد على حياة كاتبها الخاصة وتستبطن أفكاره ودوافعه ومشاعره الذاتية[11].

أما الدكتور إحسان عباس فيقول إن كل سيرة فإنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني فإنه لا بد أن يكتبها[12].

ويقول الدكتور عبد المحسن بدر إن الترجمة الذاتية تحاول تفسير تاريخ حياة مؤلفها في رحلة زمنية محدودة وتحتفظ بالترتيب الزمني للأحداث كما وقعت لصاحبها ولا يقتصر المؤلف فيها على سرد الأحداث، ولكنه يقف فيها موقف الدارس والمحلل، كما أن الرابطة التي تربط بين أحداثها مجرد رابطة سطحية تتمثل في وقوع الأحداث بعينها في زمن محدد[13].

وسوف يزداد هذا المفهوم وضوحا وتحديدا عندما يحدّد (فيليب لوجون) هذا الفن بانه حكي استعادي نثري يقوم

به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفرديه وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة[14].

2. ملامح السيرة الذاتية

2. 1. البناء/ الهيكل:

البناء الفني من الشروط الأساسية لأي فن ولذلك تحتاج السيرة الذاتية لكي تنتهي إلى الفنون الأدبية أن يكون لها بناء مرسوم واضح يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرّت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة[15]. ويقول الدكتور إحسان عباس: «إن السيرة التاريخية كان ينقصها البناء الكامل أو الهيكل الواضح، ومعنى هذا أن تزويدها بالهيكل أو البناء أمر لازم لها قبل أن تحكم عليها، أنها فن أم لا، لأن كل عمل فني لابد أن يكون ذا بناء معين». [16].

2. 2 العنصر الذاتي:

تدور السيرة الذاتية حول حياة صاحبها، بما في هذه الحياة من ضروب الأحداث والتطورات والتجارب، ويشكل العنصر الذاتي الأساسي الذي تدور من حوله سائر المكونات الأخرى في السيرة الذاتية، فهو البؤرة التي تشع على ما سواها من حيوات وعوالم يتصل بها صاحب السيرة.

وهذا يقتضي كاتب السيرة أن يدير الأحداث حول الشخص المترجم له ولا يسمح لحياة الأشخاص الآخرين بالتحكم في منحى السيرة، ولا يعرض من حياتهم إلا المقدار الذي يوضح حياة بطل السيرة نفسه[17].

والكاتب لا يمكن أن يكتب سيرة نفسه إلا إن كان يبصر الحقائق المتعلّقة بذاته على نحو ذاتي .... وينبغي أن يكون موضوعيا في نظرته لنفسه، بمعنى أن يتجرّد من التحيز لنفسه، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها وحبها لإعلاء شأنها وتنقّصها من أقدار الآخرين[18].

2. 3. تميز الشخصية:

ويعني هذا المصطلح أو العنصر أن الذات التي تدور حولها السيرة لا ينبغي أن تكون نكرة أو عادية، فصاحب السيرة ينبغي أن يكون إنسانا متميزا متفرداً يجد الناس في حياته ما يفتقدونه في حيواتهم. كما ينبغي أن تتضمن حياته عوامل تجذب الناس إلى سيرته. وإلاّ فإن مثل هذه السيرة التي تفتقد شخصية صاحبها التميز والتفرد وعوامل الجذب ستموت في حال كتابتها دون أن تعمّر طويلا أو تجد من يقبل عليها.

ويقول الدكتور إحسان عباس في هذا السياق: إن صاحب السيرة ينبغي أن يكون شخصاً ذا تميز واضح في ناحية من النواحي.. إذ لابد لشمول الرغبة فيها أن يكون صاحبها ذا صلة دقيقة بأحداث كبرى أو أن تكون له مشاركة في بعض تلك الأحداث، أو أن يكون ذا نظرة خاصة إلى الحياة وحقائق الكون قد تجعله سابقا لأوانه متقدّماً على أبناء عصره، أو ذا غاية كبيرة، أو صاحب أخطاء جسيمة، فإن الجواذب التي تجذب الناس إليه إنسانية أولا، ظاهرة ساطعة ثانيا[19].

2. 4. التدرج الزمني/ التاريخي:

ومن الملامح الضرورية للسيرة التزامها بالتدرج الزمني، ولذلك جعل (أندريه موروا) القاعدة الأولى للسيرة هي التعقب المطرد لنظام التسلسل الزمني[20] ذلك أن المتعة الرومانسية الكامنة في السيرة تنبع من تحسّب المستقبل ومن إحساسنا بأننا على حافة هاوية هي الغد دون أي تصور مسبق عما سنجده هناك، وحتى عندما يكون بطل السيرة مشهورا ويعرف القارئ تمام المعرفة أن ذلك الشخص مقدّر له أن يكون جنرالا عظيما أو شاعرا كبيرا في نهاية المطاف، فمن العبث أن نقول ذلك في الجملة الأولى من الكتاب[21].

تقدم السيرة حياة صاحبها في مراحلها المختلفة وأهم ما يلحظه الكاتب في السيرة: النمو والتطور في

الشخصية مع مراحل التقدم في السن، لذلك كان من المحتوم عليه أن يتابع التدرج التاريخي، وأن يلحظ بدقة تأثير الأحداث في الخارج والداخل على نفسية صاحبها[22].

2. 5. أ. الواقعية التحقيقية/ الصدق التاريخي:

ترتبط السيرة الذاتية بالواقع الحقيقي ارتباطا وثيقا، فهي تسجل الأحداث التي وقعت بالفعل وليس الأحداث الممكنة الحدوث، ولذلك فإن الواقع الذي تتضمنه السيرة الذاتية بما فيه من أحداث وتفاصيل ينبغي أن يكون واقعا تحقيقياً، بمعنى أنه قد تحقق بالفعل في حياة صاحب السيرة، فلا مجال لافتراض أحداث محتملة الحدوث أو لدخول عنصر الخيال فهذا مما يخل بالسيرة وإذا توسع حضوره قليلا يمكن أن ينقل النص إلى مساحة أخرى كالرواية أو القصة، فالسيرة لا تحتمل الخيال ولا تستوعبه إلا في حدود بسيطة لا تخل بالأحداث الواقعية، كأن يتم الربط بين تلك الأحداث ويعمل على المحافظة على تطورها وتراتبها.

و لابد للكاتب من أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة، لأن الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ويجعلها قصة منمقة ممتعة[23]. . فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقته للعرض والبناء إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله ولا يعتمد الشخصية الأسطورية ككاتب المسرحية[24].

2. 6. ب. المسكوت عنه/ المحذوف:

تحدثت في الفقرة (أ) عن الصدق أو الواقعية التحقيقة في السيرة، وأن ذلك من العناصر الأساسية التي ينبغي أن تتمثلها، ولكن هذا الصدق يظل نسبياً إذ أن الحديث عن الصدق المطلق أمر مستحيل، ولعله ضرب من الخيال أن نتصور إنسانا يتمتع بالصدق المطلق. وهناك عوامل كثيرة تقف عائقا أمام هذا الاحتمال، ومن هذه العوامل التي تحد من الصدق فتشوه الحقيقة التي تنشدها السيرة الذاتية ما لخصه (أندريه موروروا) في (أوجه السيرة) على نحو دقيق وهي[25]:

* العامل الأول أننا ننسى: فالطفولة بالنسبة للعديد منا صفحة بيضاء. . . . وكل ما تبقى لنا من طفولتنا هو. . . . الأشياء الصغيرة، . . . . والمشاعر المضطربة التي اختلطت باقترانات ضاعت جذورها في بحر من الغموض.

نحن ننسى كذلك أحلامنا بشكل خاص، ننساها بعد بضع دقائق من يقظتنا فتغيب بشكل كامل عن السيرة الذاتية الحقيقية. إن حياتنا وأفكارنا تتكون جزئيا من مادة الأحلام.

* العامل الثاني هو النسيان المتعمد: يلجأ كاتب السيرة الذاتية - شاء ذلك أم أبى - إذا كان كاتبا موهوبا إلى جعل حياته عملا فنيا، ولكي ينجز ذلك بنجاح يجد أن مادته حتى عندما تنقى بفعل عامل النسيان ما تزال مادة واسعة. وكما يقول سبنسر يضطر كاتب السيرة الذاتية إلى إغفال المادة العادية للحياة اليومية من قصته وإلى تحديد نفسه كليا بالأحداث والأعمال والخصال اللافتة للانتباه فعندما يستبعد الكاتب ذلك الجزء الممل من حياة الشخص المعني. . . . . ويقدم الأشياء الصارخة فحسب، فإنه يخلق الانطباع بأن حياة هذا الشخص تختلف عن حياة الآخرين أكثر مما هي فعلا، لا مناص من هذا النقص.

* الرقابة الطبيعية التي يمارسها العقل على كل ما هو كريه وسمج، دعنا نعود إلى متعة الطفولة، فإن كانت تبعث على السخط أو الشعور بالعار، لن تروى بصدق على الإطلاق، أننا نتذكر الأشياء عندما نريد أن نتذكرها. ونودع في طيات النسيان كل ما يؤذينا، نغيره بوعي في البداية، لنجعل قصتنا أكثر إمتاعا، وأكثر حيوية وأكثر إثارة من الحدث الفعلي.

* الشكل الآخر للرقابة هو ما يفرضه الشعور بالعار. قليلون هم

الرجال الذين يملكون الشجاعة للتصريح بحقيقة حياتهم الجنسية . . . كيف يتسنى لكاتب السيرة الذاتية أن يقول الحقيقة عن مثل هذه الأشياء.

* إن الذاكرة لا تخفق فقط، سواء بمرور الزمن أو بالرقابة المقصودة، وإنما تخفق بعد الحدث، وتسدّد المشاعر والأفكار التي ربما كانت السبب في حدوثه أو التي نختلقها بعد وقوعه. من الناحية الفعلية: الحدث هو وليد الصدفة، ففي حالات شتى نكتشف دوافع سامية وبطولية لأعمال أدناها دون قصد أو وعي.

* الرغبة المشروعة في حماية أولئك الذين شاركونا الأعمال التي نصفها، حتى لو اعتزمنا قول الحقيقة كلها عن حياتنا، فإننا لا نملك حق قول الحقيقة كلها عن حياة الناس الآخرين، أو في الأقل لا نعتقد أننا نملك هذا الحق.

ويختم (أندريه موروا) هذا التحديد لموانع الصدق بقول (ترولوب): أن أقول أو يقول أي إنسان آخر كل شيء عن نفسه أمر مستحيل، فمن بوسعه أن يحتمل الاعتراف بارتكاب عمل دنيء، وهل ثمة من لم يرتكب أي عمل دنيء؟.

2. 6. الخطة المؤثرة:

وهي ما يشيّع في السيرة من مناخ يجد تجاوبا في نفس القارىء، فيقيم حواره معه، ويتأثر به فلا بد لكاتب الترجمة الذاتية أن يحقق لها خطة مؤثرة تثير في نفس المتلقي لها التعاطف مع صاحبها وتحرك تيار وعيه الباطن، وخبيئات وجدانه، ليحدث فينا جيشانا نفسيا مع كاتبها، لأنه حين يبسط دخائل نفسه أمام المتلقي ويفضي له بمكنونات شعوره يقيم بينه وبين المتلقي رابطة عاطفية لا تقوم إلاّ بين الصديقين الحميمين[26].

2. 7. صراع الذات والعالم:

ويذهب الدكتور إحسان عباس إلى أن حظ السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي، أو شدة الصراع الخارجي. . . ولا بدّ لها كي تكتسب من أن يتجسد فيها الماضي بخيره وشرّه، لا على شكل ذكريات متقطعة، ولا على شكل صور خارجية شاهدها الكاتب في الناس والأشياء، بل على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها، ومن ثم قد تجيء السيرة الذاتية صورة للاندفاع المتحمّس والتراجع أمام عقبات الحياة، وقد تكون تفسيرا للحياة نفسها، وقد يميل فيها الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته، مغفلا الاهتزازات الخارجية فيها إهمالا جزئيا. . . . . وقد تمتزج هذه العناصر على أنصباء متفاوتة[27].

ويتبع الدكتور عبد الدايم خطوات الدكتور إحسان عباس فيذهب إلى تقرير أهمية هذا العنصر في السيرة الذاتية التي ينبغي أن تعنى بتصوير الصراع بضروبه المختلفة، تصويرا يطلعنا الكاتب من خلاله على دخائل نفسه، وأثر أحداث الخارج في حياته النفسية والشعورية والفكرية، مظهرا من خلاله ما ينعكس على مرآة ذاته من وقائع الماضي وأحداثه خيرا كان أم شرا[28].

2. 8. الاختيار:

لا تقوم السيرة - كما يقول موروا - على البوح بكل ما يعرفه المرء لأن أقل الكتب شأنا سيكون في مثل هذه الحالة واسعا سعة الحياة نفسها، وإنما تقوم على جرد ما يتوفر عليه المرء من معرفة، وانتقاء ما هو ضروري منها.

وينقل (موروا) عن الدكتور جونسون قوله «وظيفة كاتب السيرة أن يمر مرورا عابرا بتلك الأعمال والأحداث التي تصنع عظمة فجّة، وأن يقود الأفكار إلى الخصوصيات الداخلية، وأن يعرض التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية حيث تكون الإضافات الخارجية جانبا، وحيث يبز الناس بعضهم البعض بالحكمة والفضيلة[29].

ويقول د. إحسان عباس حول عنصر الاختيار «لا بد لكاتب السيرة

من يقظة ذهنية مستمرة، مشفوعة بإرهاف، خاصة في التمييز والحدس والترجيح، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة لهمة أي فنان بعد أن تصبح المادة جاهزة لديه، مهمته هي أن يقرّب ويبعد، ويستبقي ويرفض، وأن يضع ميزان الاختيار أمامه، في كل شيء يستحق التسجيل»[30].

وعنصر (الاختيار) من العناصر التي تبنى عليها فنون أخرى كالرواية والقصة، فمهما كان اقتراب النص شديدا من الواقع إلا إنه لا يمكن أن يطابقه لأن تحوّل أحداث الواقع والحياة إلى عمل مكتوب ونشاط لغوي تعني تحولها إلى مستوى آخر غير الذي كانت عليه واقعيا إذ أنها تمر بعملية الاختيار لاستحالة نقل كل شيء.

2. 9. **اكتمال التصوّر ووحدة التجربة:**

يقول د. إحسان عباس إن الناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم أحد رجلين: رجل وصل إلى حيث يؤمّل وانتصر على الحياة وصعابها، وأحسن التخلّص من ورطاتها وشعابها، ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الاخفاق، وكلا العاملين، أعني الوصول والخيبة يبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة. ورؤيتها عند التطلّع إلى الماضي، على أساس من نظرة ذاتية، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادرا على أن يكتب سيرة حياته . . . ولا يرى الإنسان مكانه بوضوح إلا إذا أصبحت تجاربه ذات وحدة متكاملة، وكانت لديه قاعدة يتقابل بها وجها لوجه مع حقائق الوجود الأخرى، وهذا فرق أصيل بين الفنان وغيره، وهو سر تفرده في الحياة، كما أنه سر سعادته أو شقائه[31].

ولعل هذا العنصر - اكتمال التصوّر واكتمال التجربة - هو الذي يساعد الكاتب على أن يوفر لسيرته بناء شاملا ومتسعا - فلا تبدو مفككة ومجزأة، فالرؤية القائمة على تصوّر كلي وتجربة شاملة وناضجة تنتج شكلها الملائم والمتسق معها بحيث يكون هو الآخر متسقاً ومتكاملا، فالتلازم بين الرؤية والتشكيل أو المضمون والشكل أمر معروف في الأعمال الفنية الناجحة.

3. السيرة الذاتية وانماط الأدب الشخصي

تلتقي السيرة الذاتية مع أنماط أخرى تتصل بحياة الإنسان وتدور حولها، وهي الأنماط التي يمكن تسميتها بالأدب الشخصي، كالسيرة الغيرية واليوميات والمذكرات ورواية السيرة الذاتية وقصيدةالسيرة الذاتية والاعترافات وسواها من أنماط تحوي قدرا واسعا أو ضيقا من حياة الإنسان الذي كتبت عنه، فما هي صلة السيرة الذاتية بهذه الأنماط، وإلى أي حد تلتقي معها أو تخالفها وتمتاز عنها؟؟.

نعود هنا إلى تعريف السيرة الذاتية الذي وضعه (فيليب لوجون) وذكرناه سابقا: حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة.

ويشرح (لوجون) هذا التعريف الذي يعرض عناصر تنتمي إلى أربعة أصناف مختلفة[32].

1. شكل اللغة أ. حكي ب. نثري
2. الموضوع المطروق: حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة.
3. وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) مع السارد.
4. وضعية السارد:

أ. تطابق السارد مع الشخصية الرئيسية (المؤلف).

ب. منظور استعادي للحكي.

واعتماداً على هذه الحدود نستطيع أن نميّز السيرة الذاتية ومقدار اختلافها مع أنماط الأدب الشخصي التي تلتقي معها في بعض جوانبها.

3. أ. السيرة الذاتية والمذكرات *(Memoirs)*

المذكرات هي ما يدونه الإنسان

حول الأحداث والمواقف التي يمر بها في حياته في زمن معين، وغالبا ما تعنى المذكرات بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من تصوير الواقع الذاتي[33]، واقترابها من السيرة الذاتية هو بمقدار اقترابها من الكشف عن الذات، فإذا ظلت تعنى بما هو خارج الذات من وقائع وأحداث فإنها لا تلتقي مع السيرة في الموضوع المطروق (حياة الفرد) كما أنها على ما فيها من تناثر وتقطّع لا تشكل تصورا كليا أو بناء كاملا متماسكا، ولذلك تظل في إطار المواد الأولية التي يمكن أن تساعد في بناء السيرة وكتابتها، ولكنها تحتاج إلى تهذيب واختيار وإلى إعادة صياغتها من جديد في هيئة سيرة ذاتية مكتملة.

3. ب. السيرة الذاتية والسيرة الغيرية:

يعرض الدكتور إحسان عباس إلى رأي فريقين حول هذا الأمر، فهناك فريق يرى أن لا فرق بين السيرة الذاتية والسيرة عامة في الغاية والشكل والمضمون إلاّ أن إحداهما تكتب بضمير المتكلم والأخرى بضمير الغائب، فكلاهما فن لا علم. وأما الفريق الآخر فيرى أن بينهما شركة كالتي بين كثير من الفنون الأدبية ولكن القول باتفاقها التام خاطئ أو بعيد عن الصواب، لأن الترجمة الذاتية نقل مباشر، أما الترجمة الغيرية - أي ترجمة حياة الآخرين - فإنها نقل عن طريق الشواهد والوثائق وشتان ما هما، ثم إن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي نفس الصفات التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة.

وفي رأس تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة موضوعيا، يلمح بسرعة ويفهم بإحكام ويلم الحقائق، ويحكم عليها ويمزجها مزجا متعادلا منسجما، ويصبغها بأسلوبه، أما كاتب السيرة الذاتية فإنه ذاتي قبل كل شيء ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته، مترجم غيره يقف موقف الشاهد لا القاضي أما مترجم نفسه فإنه يجمع بين الصفتين، ونتيجة لهذه الفروق تتبع السيرة الذاتية من الداخل متجهة نحو الخارج، على عكس الاتجاه الذي تمشي فيه السيرة غير الذاتية، ونجاح المترجم الذاتي يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب، أما نجاح من يكتب سيرة غيره فيقاس بمقدار تحرره وغيريته[34].

ويرى الدكتور عباس أن القول باشتراكهما مصحوب بالغلّو، ولكن اتفاقهما في كثير من المظاهر والعناصر أمر طبيعي، وكلما أصبحت السير تعبيرا ذاتيا، عن نفس كاتبها وظروفه، وسمات الشخصية التي يتحدث عنها في مثله الأعلى قلت نسبة الفرق بين هذين الفنين[35].

3. جـ. السيرة والرواية الشخصية:

ويقصد بالرواية الشخصية: الرواية التي يستمد الكاتب أحداثها ومناخاتها من حياته الشخصية، وهو اتجاه معروف في الرواية الحديثة، ولكن هذا الشكل الروائي يختلف اختلافا بيّنا عن السيرة.

وقد اتفق سائر الباحثين على وجود هذا الاختلاف وعملوا على إبرازه، فالدكتور شوقي ضيف يقول في مقدمة كتابه (الترجمة الشخصية): ..... فهم تارة يكتبون تراجم كاملة يرسمون فيها حياتهم رسما دقيقا لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية وتارة أخرى يقصّون على طريقة القوم (يقصد الغرب) قصصا تصور حياتهم، إن لم يكن تصويرا كاملا فهو تصوير لبعض تجاربها، ومن أمتع ما كتب في هذا اللون قصة (إبراهيم الكاتب) لإبراهيم عبد القادر المازني، حقا أنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازني ولكنها في جملتها تعد تصويرا لوقائعه وتجاربه الشخصية. وكتابة القصة على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق لأنه يضيف تجارب أخرى من محيطه، ولكنها على كل حال تعد

تعبيرا عن نفسه وإن لم يكن تعبيرا دقيقا على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية[36].

لقد ميّز الدكتور شوقي ضيف بين السيرة الذاتية والرواية/ القصة التي تستفيد من حياة كاتبها، ولكنه رأى أننا يمكن أن نعتمد على مثل هذه القصة في معرفة حياة كاتبها، وهو ما لا يراه إحسان عباس حين يقول وأنا أتهم الطريقة التي يراها بعض الناس صوابا، والتي تريد أن تكشف عن توفيق الحكيم أو تيمور أو غيرهما في شخصياتهما الروائية أو القصصية، بل أذهب إلى أبعد من ذلك حين أرى أننا لا نعرف المازني من (إبراهيم الكاتب) ولا توفيق الحكيم من (عودة الروح) ولا العقاد من (سارة) ذلك لأن هؤلاء حاولوا أن ينسجوا جانبا من تراجمهم الذاتية نسيجا قصصيا، وللقصة مبناها ومتطلباتها وأحكامها، فكم أجرى هؤلاء من تغيير في الواقع حتى تتلاءم قصصهم وتنسجم أجزاؤها . . .[37].

3. د. السيرة الذاتية واليوميات (Diary):

اليوميات: سجل للتجربة اليومية، والحفاظ على عملية حياة المرء بالذات دون النظر إلى التطور الذي يحاكي نموذجا معينا، أو التواصل القصصي، أو الحركة الدرامية[38].

وهي تشبه المذكرات من حيث أنها أشتات مفرّقة، لا يبين فيها تطوّر حياة الإنسان، ولا يظهر فيها البناء أو التجربة المتكاملة، ويمكن الاعتماد عليها كوثائق وشواهد تعين على كتابة السيرة الذاتية، ولكنها في ذاتها لا تشكل سيرة بالمعنى الذي حدّدناه، كذلك فإنها تكتب متزامنة مع الأحداث والمواقف والنشاطات التي يسجلها الكاتب، ولذلك لا تتضمن منظورا استعاديا أو استرجاعيا كالذي تتطلبه السيرة الذاتية.

واليوميات تختلف عن المذكرات وإن استعملا في بعض الأحيان مترادفين، فاليوميات هي سجل التجارب والخبرات اليومية، وحفظ الأخبار والأحداث الحياتية للشخص من غير تطور أو استعمال للسرد القصصي أو الحركة الدرامية التي تتصل بالأحداث التاريخية التي تحيط بالكاتب أكثر مما تهتم بحياة الكاتب نفسه[39].

3. هـ. السيرة والاعترافات:

ينطوي الاعتراف على الإقرار بأخطاء الذات وبكل ما ارتكبت من آثام وخطايا، أي الامتداد بالسيرة إلى فضاء من الصراحة المطلقة المكشوفة التي لا تقيم وزنا لما يفرضه المجتمع من حدود أخلاقية وقيود على إقرار الإنسان بما عاشه وما واجهه في حياته بصراحة سافرة وحادة.

فالاعترافات يمكن عدّها من أشكال السيرة الذاتية، عندما تتسم بالصراحة الكلية والخروج على رقابة المجتمع وعدم الخوف منه. وهي نادرة في الأدب العربي إذ ليس هناك سوى ظلال باهتة منها لا تبلغ ما بلغه هذا الفن في الأدب الغربي كاعترافات جان جاك روسو واعترافات القديس أو غسطين واعترافات تولستوي وسواها.

ولعل عملا واحدا صدر منها في الأدب الحديث للكاتب المغربي (محمد شكري) هو (الخبز الحافي) حمل كاتبه إلى آفاق من الشهرة ليس بسبب جودة ما كتبه فحسب، بل بما تضمنته سيرته من صدق مطلق وصراحة تبلغ حدّ الإيلام.

وأذكر في هذا السياق أن الدكتور إحسان عباس كان متحمسا للصراحة الكلية وسيرة الاعترافات في كتابه (فن السيرة) الذي وضعه في مطلع شبابه ولكنه ابتعد عن الصراحة الكلية عندما كتب سيرته (غربة الراعي) وعلل ذلك بقوله لأني لا أستطيع أن أحمل

مسؤولية تلك الصراحة وأن مجتمعي لا يزال يصد عنها.

فظهور الاعترافات كشكل من أشكال السيرة الذاتية يتطلب مجتمعا يقبل هذا اللون الأدبي وما فيه من حرارة التجربة وآلام البشر، كما أنه يتطلب جرأة من الكاتب نفسه، بل جرأة لا تعرف حدا تقف عنده، بحيث تتجاوز حدود المجتمع وقيمه التي لا تستوعب المختلف والمكشوف، بالرغم من وجوده في الحياة وربما عند كل البشر وإتماما للفائدة أنقل عن (فيليب لوجون) قائمة الأنواع التي تقترب من السيرة الذاتية وتختلف معها، وتبيّن هذه القائمة (بالإحالات التي فيها جوانب الاختلاف (يحيل الكاتب إلى عناصر السيرة الذاتية المبينة في الفقرة (3) من هذا البحث)[40].

المذكرات (2)

السيرة (4 أ)

قصيدة السيرة الذاتية (1ب)

اليوميات الخاصة (4ب)

الرسم الذاتي أو المقالة (1أ + 4ب)

الهوامش

1. أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، مادة (سير).
2. مها العطار: السيرة الذتية في الأدب العربي - رسالة ماجستير - جامعة دمشق (80 - 81) ص 6.
3. د. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية ص3.
4. د. إحسان عباس: فن السيرة، ص 12.
5. مها العطار: مرجع سابق، ص 13، عن الأشتر: فنون الشر الهجري ص 180.
6. انعام عبد الله شعبان: السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث، رسالة ماجستير، ص 5.
7. مها العطار: مرجع سابق، ص 13، عن د. ماهر حسن فوزي: السيرة تاريخ وفن: ص 75.
8. د. يحيى عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 13.
9. مها العطار: مرجع سابق، ص 6.
10. د. عبد العزيز شرف: مرجع سابق، ص 3 - 4.
11. مها العطار: مرجع سابق، ص 47، عن الموسوعة العالمية ج2/ 238.
12. د. إحسان عباس: مرجع سابق، ص 95.
13. د. عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة، ص 299.
14. فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ص22.
15. د. يحيى عبد الدايم: مرجع سابق، ص 4.
16. د. إحسان عباس: مرجع سابق، ص 69.
17. المرجع السابق، ص 69.
18. المرجع السابق، ص 101 - 102.
19. المرجع السابق، ص 96.
20. اندريه موروا: أوجه السيرة، ص 50.
21. المرجع السابق، ص 51.
22. إحسان عباس: المرجع السابق، ص 77.
23. المرجع السابق، ص 70.
24. المرجع السابق، ص 79 - 80.
25. انظر: اندريه موروا: أوجه السيرة (110 - 126).
26. د. يحيى عبد الدايم: الترجمة الذاتية، (مرجع سابق) ص 10، وانظر إحسان عباس، فن السيرة، ص 9 - 100، في حديثه عن الغاية المزدوجة التي تؤديها السيرة، وكذلك ص 93 - 94.
27. د. إحسان عباس: فن السيرة، ص 99.
28. د. يحيى عبد الدايم: الترجمة الذاتية، ص 9.
29. اندريه موروا: أوجه السيرة، ص 59.
30. د. إحسان عباس: فن السيرة، ص 78.
31. المرجع السابق: ص 95.
32. فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ص 22 - 23.
33. د. يحيى عبد الدايم: الترجمة الذاتية، ص 3.
34. د. إحسان عباس: فن السيرة، ص 103 - 104.
35. المرجع السابق، ص 104.
36. شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، ص 11.
37. د. إحسان عباس: فن السيرة، ص 82.
38. د. عبد العزيز شرف: فن السيرة الذاتية، ص 44.
39. انعام شعبان: السيرة الذاتية في الأدب العراقي، ص 38 - 39.
40. فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ص 23.